بيت عراقي قديم

Famille Nazhmi Zâdeh

الشيخ ياسين المفتي ابن حسين افندي

— شيخ العراق —

— ٦ —

قد عثرت صدفة في اثناء مطالعة حديقة الزوراء على نبذة وجيزة عن المترجم وهي مهمة لانها تنبيء عن مكانة بعض افراد هذه الاسرة فاحببت اطلاع القراء الكرام عليها قبل الكلام على عبد الله افندي ابن مرتضى افندي للعلاقة النسبية والصلة العلمية بين الاثنين ولتلازم بحثهما من نقطة توجه الاختصاص الى وجهة جديدة ودخولهما في ناحية من العلم لم تكن مألوفة لآبائهما واجدادهما . اللهم إلّا حسين آل نظمي فانه هو الذي بترها ولعل الاثنين خريجا معرفته وتدريبه ، وقد نال المترجم مكانة سامية ورتبه علية . قال صاحب الحديقة :

«لما بلغ الامر — مغلوبية الوزير احمد باشا والي بغداد في حرب الافغان — الى امير المؤمنين ارسل يسلي الوزير عن هذا الامر الخطير ووعده بالعساكر الكثيرة العدد المتواصلة المدد وقرئ الفرمان التمس (شيخ الاسلام) ، (المفتي ببلد السلام) العالم العلامة ، الحبر الفهامة (شيخ العراق) على الاطلاق ، (ذو التحرير المبين) مولانا الشيخ ياسين رحمه الله رحمة تدفقت حياضهـا وانقت رياضها من والدي حفظه الله تعالى ان ينشيء له كتاباً لحضرة هذا الوزير مشتملا على التسلية وجامعاً اصناف التهنئة ، فانشأ كتاباً هو السحر الحلال ، تضرب له نواقيس الامثال إلّا انه لطول العهد لم يبق في ذكري منه شيء يعهد . » انتهى ما جاء في ص ١٨٢ عند الكلام على وقائع سنة ١١٣٩ .

ويفهم منه ان المترجم توفي قبل تحرير الحديقة اي قبل وفاة احمد باشا الوزير وقد اطلعت على مجموع خطي في خزانة الاوقاف في بغداد تحت رقم ١٤٩١ كان تملكها المترجم فكتب على غلافها «ثم انتقل بالشراء الشرعي الى الفقير ياسين ابن حسين المفتي بدار السلام سنة ١١٣٥» انتهى مما يدل على انه كان مفتياً في السنة المذكورة

ويقطع بانه تولى الافتاء حينما كان عبد الله افندي ابن مرتضى امين الفتوى وسيأتي ذكره .

هذا وان المنصب لا يكسب المرء فخاراً . وغاية ما هنالك ان صاحب الحديقة ذكره عرضا فأبان منزلته وفضله .

ومما يسترعي الانظار ان هذه الاسرة لا تزال تسمي ابناءها بهذا الاسم فان احد اولاد طاهر جلبي اسمه ياسين . وما ذاك إلا لان هذا المترجم نال شهرة فائقة .

عبدالله افندي المفتي بن مرتضى افندى

هذا هو ابن مرتضى افندي . وقد اسس شهرة جديدة بسبب انه عهدت اليه مهمة الافتاء ونعت بالمفتي ، فقيل لاولاده واحفاده : (آل المفتي) . ومن ثم غطت شهرته على سابقيه . فلازمتهم صفة الافتاء الى مدة . وقد اطرى الحيدري صاحب « تاريخ عنوان المجد » هذا البيت فقال :

« ومنهم [من بيوت بغداد] بيت الفاضل العلامة عبدالله بن مرتضى المفتي [المفتي هنا نعت لعبدالله افندي] وهو بيت علم وفضل . وقد اخذ عن جدنا العلامة النحرير السيد صبغة الله الحيدري . وكان لعبد الله المفتي المذكور ولد فقيه يسمى « عبدالفتاح » الفقيه . وكان افقه اهل عصره . ويدعى بابي يوسف الثاني . وله اخ [الضمير يعود الى عبدالفتاح] يسمى الحاج احمد نائب بغداد . وآخر من ادركت من رجال هذا البيت ... الكامل الفقيه درويش النائب نجل احمد النائب . ولم يبق منهم احد سوى بعض العصبة من اهل الكسب . وهم من اهالي بهرز من قرى بغداد » اه . [راجع ص ١١٦] .

كان المترجم في زمن الوالي حسن باشا وابنه احمد باشا امين الفتوى حينما كان يس افندي مفتيا في المذهب الحنفي وقد رثى الوزير حسن باشا بمقامه سماها (المقامة الحسنية) ومدح الوزير احمد باشا بقصائد كثيرة تتضمن وقائع تاريخية وبيانات مهمة . وان صاحب الحديقة اوردها كوثائق تاريخية ومدائح للوزير وهذه يعول عليها لوصف زمنه دون الذين تصرفوا فيها . وبهذه اكمل تاريخ والده من حيث لا يقصد . ولذا اقتبسها المؤرخون واصحاب المجاميع واستدلوا

بها كنصوص تاريخية .

ثم ان المرحوم نعمان افندي الآلوسي وقف ايضا عند عبدالله افندي ابن مرتضى افندي في التعريف به لعلاقة القربى بينهما في مجموعته والظاهر ان نظمي افندي نسي تماماً ولم يعرف بعد ذلك ولذا لم ينبه عليه . وانما ذكر انه عثر في الاستانة على (كتاب نزهة المشتاق في علماء العراق) لابي البركات الشيخ محمد الرحبي الذي فرغ منه مؤلفه سنة ١١٧٥ هـ وجده في خزانة راغب باشا حينما ذهب اليها ، فنقل ترجمته من هناك كما ان مجلة « اليقين» ذكرت بعض مقتبسات من الكتاب المذكور ولكن الآلوسي بعد ان دون هذه الترجمة بنصها علق عليها بان المترجم جد والده المرحوم حسام الدين افندي الالوسي لامه وذلك ان امه آسية [زوجة نعمان افندي] بنت المرحوم درويش افندي ابن احمد افندي المفتي ابن عبدالله افندي المذكور .

وهذه المجموعة ـ مجموعة الالوسي ـ هي التي رقمها ٣٢٩٨ في خزانة الاوقاف ببغداد . ومنها نقل المرحوم شكري افندي الالوسي ترجمته مع تعليق نعمان افندي عليها في كتابه المسك الاذفر المطبوع في بغداد سنة ١٣٤٨هـ (١٩٣٠) وزاد شكري افندي ان هذه الترجمة مجرد اسجاع منحطة في حين انها تحتوي مطالب مهمة وقد ذكرها في الكتاب المذكور وفي المجموعة المنوه بها فلم نر في نفسنا حاجة الى تكرار القول عنها .

فالرحبي معاصر له وعارف باحواله . وفي هذا ما يكفي للدلالة على طول باعه وتضلعه من العلوم. فالاسجاع ـ بمقتضى ذلك الزمن ـ لاتمنع من النفوذ الى ما وراءها من حقائق بارزة للعيان ... فهو نابغة ايضاً كاسلافه واجداده إلّا انه غير وجهته فصار تحصيله عربياً بحتاً كما ان ابن عمه يس افندي كذلك . وقد اخذ عن عمه حسين افندي هو وجماعة من علماء العراق وعلى كل حال هو فقيه ومحدث واصولي بالوجه المبسوط في ترجمته الآنفة الذكر كما انه اديب ناثر وشاعر في العربية مع التمكن من اللغة التركية ولكن العربية هي الغالبة عليه .

وله في النثر ـ مما ابقته الايام ـ مقامة سماها (المقامة الحسنية) كتبها باللغة الفصحى وقدم عليها مقدمة تركية قال ما مؤداه :

« ان الوزير صاحب السعادة حسن باشا تولى ولاية بغداد مدة ٢١ سنة في خلالها عاش العراق بأمن وطمأنينة . ثم تولى الامارة الكبرى في الحرب الايرانية فتوجه بالجيوش الاسلامية الى ديار العجم ووصل قرمسين (كرمانشاه) وهناك وافاه الاجل فقضى نحبه . وان اهل الرأي من الامراء هناك لم يستصوبوا دفن جسده المبارك في تلك الديار ورأوا نقل نعشه الى دار السلام فسيروا نعشه مع احمد آغا كهية الباب فنقله .

وحينئذ خرج لاستقباله العلماء والاعيان وسائر الاهلين ببلد السلام . وليس من المستطاع وصف البكاء والعويل الذي حدث في ذلك اليوم .

ولما علم الطغاة واهل البغي بموته ابتدأوا بقطع الطرق فانقطعت الميرة والسوابل وانتزعت الشفقة والرأفة من القلوب فاختل النظام الذي قام به وتشوشت الحالة . والحاصل ان اشراط الساعة قد ظهرت بوادرها بموته وشوهدت علاماتها ...

وان هذا الفقير الحقير — يعني نفسه — قد شاهد ليالي القدر الاولى في زمنه قد تبدلت بليال سود . ولذا استغرق في بحر لجي من الحيرة والاضطراب لما رآه من تغير الحالة . واظهاراً لهذا الاسف والحزن عزم على تدوين مقامة تتضمن رثاءه موهماً ومورياً بسور القرآن العظيم في بيان شجاعته التي ابداها خلال حكمه مع كشف اوصافه الحميدة وخلاله الكريمة .

قال واثر الشروع في تسويد هذه المقامة تأملت الامر وفكرت فيه ملياً فحصل لي انه يستحيل تصحيح هذه الاحوال واعادتها الى نصابها ما لم يتصد نجله المكرم فيقضي على هذا الخلل ويعيد النظام الى نصابه . وحينما وصلت الى سورة المرسلات الهمت النطق بسعادة نجله فرجوت من الله تعالى ان يدفع به ما الم بنا من هذا الخطب الجلل والمعضل الصعب .

استجاب الله تعالى دعاءنا — ولله الحمد — ولم تمض إلا مدة يسيرة حتى جاءت البشرى من جانب الحكومة العلية بتوليته الوزارة على ولايتنا وعلى ادارة كافة شؤون الاقاليم الاخر ففوضت اليه . وكان آنئذ والياً على البصرة فحسب .

وهذه المقامة نظراً لغرابة وضعها قد نالت رغبة من اكثر ارباب العرفان

فكتبوها وسارت الى الاقطار الاخرى مثل مصر والاستانة وغيرهما » اه .

وعنوان هذه المقامة :

(المقامة الحسنية في رثاء ذي السجايا المرضية المرحوم حسن باشا والي ولاية بغداد المحمية) .

واولها : الحمد لمن له الاماتة والاحياء الخ . وفي آخرها يقول : فرحم الله الذي مات وابقى الخلف ... انتهى هـذا نص ما في المجموعة الموجودة عندي موافقاً لما جاء في حديقة الزوراء . والنسخة كتبت في اواخر القرن الثاني عشر تقريباً .وليس فيها تاريخ . ولاعلم لوصفها الآن سوى اني اقول انها تحتوي على جملة صالحة من شعر المترجم ، منها ما هو مذكور في الحديقة واكثره يشير الى تهنئة احمد باشا بالولاية والى حروبه للعجم وللعشائر المناوئة . والكل ذو علاقة بتاريخ العراق في زمن احمد باشا وقد عول عليه صاحب الحديقة في ما ذكره عن الوقائع والحوادث الاخرى كتعمير الحضرة القادرية وغيرها ...

وهنا لا يفوتنا ان نشير الى ان صاحب الحديقة نعته بالسيد عبد الله المفتي وكذا صاحب المجموعة المتأخرة عن تاريخ نزهة المشتاق والظاهر ان هؤلاء استدلوا على ذلك من نسبته الى سبط الشيخ عبدالقادر الجيلي . ولذا يستبعد ان يكون ذلك شخصا آخر غير عبد الله افندي المفتي . ومع هذا ننقل ذلك بتحفظ الى ان يتجلى المبهم تماماً سوى اننا نقول : ان من المعلوم ان النسبة تكون للاب وقد علمت ايها القارئ سلسلة نسبه وان اقاربه اليوم ينفون ان يكونوا علويين .

ولعل منشأ هذه الشهرة تكرار اشعاره في اتصاله بلحمة نسب الكيلاني . ومن ذلك يستفاد ان امه زوجة مرتضى افندي من الاسرة الكيلانية . وفي ذلك الزمن كان التعلق بالآل مفيد ولو بسبب ضعيف . وإلّا فاشعاره لا تشير الى سيادة . وقد وقع صاحب الحديقة في الخطأ كما وقع صاحبه سجل عثماني استنتاجاً من شعره بعلاقة انه سبط الشيخ وقد ذكر له صاحب الحديقة من الاشعار الى حوادث سنة ١١٥٦ تقريباً وكان معاصراً لوالده .

واليك ايها القارئ بعض مختارات شعره التي كثيراً ما اوردها صاحب الحديقة قال من مطلع قصيدة :

اهلا وسهلا بطويل النجاد ... وناصر الدين كثير الجهاد
بغداد من نورك قد اشرقت ... واورقت قضبان عود الفؤاد
حييت يامولاي من قادم ... قدومه قد كان عين المراد
قد ذهب الروع وزال العنا ... وانقمع البغي واهل الفساد
بغداد فيكم قد سمت رتبة ... وأمنها قد فاق امن البلاد

الى ان يقول :

فحيثما سرت فسر آمناً ... فلا كبا بك فرس يا جواد
قد قال ذا سبط الولي الشهير ... قطب الورى الحامي لدار السداد
العبدلله سمى بالامين (كذا) ... في خدمة المولى القوي العماد

وقال :

الكون ضاء سناه منه ديجور ... والوقت رق صفاه منه مكدور
والبشر والامن والافراح قد ملأت ... قطر العراق فللارواح تبشير
والدهر ابدى علامات اسر بها ... كأنما هو في ذا الفعل مأمور

الى ان يقول :

حسان مدحك عبدالله من قدم ... على مديحك مجبول ومقصور
قدم سعيداً باقبال يلازمه ... فتح ونصر واقبال وتدبير

وقال حينما امر الوزير بتعمير صفة الحضرة القادرية :

ان فحل الرجال قطب سديد ... وعليه رحى الانام تدور
وكرلماته مدى الدهر تتلى ... ولهام العدى لها تكسير
قد وهت صفة له وتداعت ... لسقوط والسقط كاد يطير
بقيت برهة من الدهر هذا ... شأنها والعقول فيها تحير

الى ان يقول :

مذ رآها الضرغام قال اعمروها ... فبنا الامر للبناء ينور
تم تعميرها وقرت عيون ... وقلوب سرت وزاد حبور
فاذا قيل هل جزاء لهذا ... قال سبط الولي اجر كبير
للمكافاة افصح التاريخ ... الجزا بالجنات قصر وحور

وامثال هذه الاشعار كثيرة فلا نطيل القول بايراد اكثر من هذا .

اولاده :

١ــ عبد الفتاح افندي . وقد مر الكلام عليه في صدر هذا المقال . وقد اطلعت على شهادة له في وقفية مؤرخة غرة شعبان المبارك لسنة ١٢١٢ تتعلق بوقف مدرسة جامع الصياغ وفيها [الملا عبد الفتاح ابن المرحوم عبدالله افندي المفتي في بغداد] مع ختمه [عبد الفتاح] . ولم يترك ذرية .

٢ــ الملا طه . وهذا ترك اربعة ابناء ياسين ومرتضى ومصطفى ومحمد راضي [الملا راضي] . وهذا الاخير ــ محمد راضي ــ اعقب محمد سليم جلبي والد طاهر جلبي وعبدالله جلبي . اما طاهر جلبي فقد تقدم الكلام عليه في اول مقال ذكرناه عن هذه الاسرة . ومن اولاده ياسين واسماعيل وغيرهما . واما عبدالله جلبي فانه توفي فخلفه ابنه محمد بك وقد مر الكلام عليه ايضاً . وباقي اولاد ملا طه ماتوا بلاعقب .

٣ــ احمد افندي المفتي ببغداد . قد شاهدت له فتوى في اعلام وقف مؤرخ في ٢٨ محرم سنة ١٢٢٥ ونصها : [ولو استحق بعض شائع لم يبطل الوقف في الباقي عند ابي يوسف كذا في المفتي (اسم كتاب) وبه اخذ مشايخ بخارى وعليه الفتوى] انتهى . وقد ذكرت شهادته في الاعلام بصورة [فخر العلماء الكرام مفتي الحنفية حالا المفتي احمد افندي] ونقش ختمه [شفاعت دارد زمحمد احمد] اي احمد الراجي الشفاعة من محمد (ص) . ورايت وقفية اخرى مؤرخة في ٧ شوال سنة ١٢٢٨ تتضمن وقف داود افندي الدفتري [هو الوزير داودباشا] ومن الحاضرين في تسجيلها فضيلة مفتي الحنفية حالا احمد افندي وهو الخطيب في الحضرة القادرية ايضاً . وقد توفي احمد افندي قبل سنة ١٢٤٥ كما يستفاد من وثيقة اطلعت عليها تتضمن التخارج مع زوجته نائلة بنت ابراهيم ومن جملة شهود هذه الوثيقة ياسين ابن الملا طه مفتي زاده ومرتضى ابن الملا طه مفتي زاده واخرون غيرهما . وقد ترك زوجته المذكورة وبنته فاطمة خانم وابنه محمد درويش افندي النائب . وهذا توفي بتاريخ ٢٠ من شهر ربيع الاول سنة ١٢٧١ زمن القاضي عثمان افندي زاده محمد امين افندي القاضي ببغداد .

وكان مع القاضي نائب دائما منذ تأسس القضاء ببغداد زمن الحكومة التركية، وقد شاهدت وثيقة بتاريخ ١١٧٥ تؤيد ذلك. وكان يسمى القاضي ببغداد قاضياً الى زمن تنظيم نيابة المركز (مركز نائبي) وهو عوض القاضي . ثم صار يسمى القاضي نائباً ، واما نائبه فصار يسمى (نائب الباب) (باب نائبي). وللبحث عن القضاء وتقلباته موطن آخر .

اما محمد درويش افندي فقد مر كلام الحيدري عنه . وقد شاهدت له بعض الاحكام في سنة ١٢٦٩ وقد ترك زوجة من آل جميل وخمس بنات احداهن والدة طاهر جلبي والاخرى زوجة نعمان افندي الالوسي وعصبته اولاد الملا طه فآلت العصوبة الى طاهر جلبي واخيه عبد الله جلبي . ومن معاصري اولاد عبد الله افندي المفتي :

السيد رمضان افندي نقيب الاشراف — مفتي الشافعية الحاج اسعد افندي
عبدالقادر افندي الصبغة — قاضي الاوردي محمد محسن افندي
فخر المدرسين رسول افندي — سويدي زاده عبدالرحيم افندي
فخر المدرسين محمد امين افندي — الحاج عبدالغني افندي جميل زاده
محمد سعيد افندي مفتي الحلة — عمر افندي الراوي

وغير هؤلاء كثيرون .

وارى في هذا كفاية للتعريف بهذه الاسرة التي نالت مكانة سامية وخدمت هذا القطر خدمات تاريخية وادبية وارشادية وتعليمية وفقهية ... والله اعلم .

المحامي : عباس العزاوي

(لغة العرب) ثم كلام حضرة صديقنا الكاتب عباس افندي العزاوي على هذه الاسرة الجليلة وقد وفاها حقها من البحث والتحقيق . واذا كان لاحد القراء ما يخالف هذا المقال او ينقده فان حضرة المحامي نفسه وادارة هذه المجلة ترحبان به كل الترحيب بشرط ان يكون بعبارة مؤدبة مهذبة ليس فيها ما يشم رائحة القدح او الطعن ونحن نشكر سلفاً كل من يجود علينا بتحقيقاته